

لم يعرف تاريخ الآداب العالمية سراً أعصى على الكشف من سر ارتور رامبو. انه الشاعر الذي بلبل الغنائية الفرنسية وارهص بالرمزية الحديثة وكان اصغر عبقرى من عباقرة الشعر في العالم. ومع

« رامبو » الطلسم

بقلم الدكتور هيلاريست

ولكننا لن نعجز عن لمس خيط دقيق يصل التاجر بالشاعر في رامبو، هو روح المغامرة، هذه التي كانت تملك عليه نفسه وفكره جميعاً. ولقد كانت في الحالين مغامرة تستشرف البعيد القاصي

الذي يهدم القريب ويزري بالمبتدل : ضاقت على رامبو بلاده، فهاجر الى اقاصي الدنيا يبحث عن المجهول، وضاقت عليه المعاني الشعرية التي كان يرددها معاصروه، فهاجر على دروب المعاني والصور والالوان، سعياً وراء المطلق في الاشياء، ومحاولة للتعبير عما لا يعبر عنه.

كان الشرق البعيد يجذبه منذ طفولته، وكان اذا غاض فترة من الزمن في نفسه، ما يلبث ان يطفو عنيفاً منادياً : « وارسلت الى الشيطان اكاليل الشهداء، واشاعات الفن، وكبرياء المخترعين الخلاقين، وعدت الى الشرق والى الحكمة الاولى الابدية ».

انها بلاد تعمرها الاحلام، ويملاها المجهول غنى. انها، كما يقول في « الاشراقات » : « مدن ! انه شعب نصبت له هذه البنانات الحاملة ! قصور من البلور تتحرك على سكك لا لا ترى ! ».

ولماذا تراه آثر الهجرة الى الشرق، لولا ما بيعته الشرق

من غير الغامض المجهول تتنفس به بلاد « الف ليلة و ليلة » ؟ لقد عثروا مؤخراً في تركة رامبو على طابع من الشمع رسمت عليه حروف عربية، فأحالوه على المستشرق الكبير ماسينيون الذي قرأ عليه عبارات بعيدة المغزى^(١) : قرأ عليه : « عبده رامبو » اي عبدالله رامبو، وقرأ عليه « الحمد لله وحده »، وقرأ عليه « نقال لبنان » اي تاجر بحور... ولقد ذكرت

١ راجع العدد ٥٤٣ من جريدة « الفيغارو ليتيرير » بتاريخ ١٦ تشرين الاول ١٩٥٤



رامبو

ذلك فهو الطلسم المغلق، وهو الاحجية التي تكنتها علامات الاستفهام من كل جانب.

كان في الخامسة عشرة حين تفتحت عبقرته الشعرية العجيبة، وقد ظل يكتب طوال خمس سنوات، ثم اذا به فجأة يصمت. وعلى شدة وعيه بان نتاجه يفتح صفحة جديدة في سفر الشعر الفرنسي والعالمي، فقد ركله بقدميه، ثم ولى وجهه شطر الدنيا يضرب في طرق الغرب والشرق، سعياً وراء المال. لقد خنق عالمه الداخلي، ليعيش عالمه الخارجي ويعيشه. وهكذا مات الشاعر الذي عاش خمسة اعوام فقط، وولد التاجر الذي سيعيش زهاء عشرين عاماً. مات صاحب القيثارة التي انشدت اغاني « السفينة السكرى » و « دمة » وأنشودة « اعلى الابراج » ومجموعتي « الاشراقات » و « فصل في الجحيم »، وولد المسافر الذي يتاجر بالسلاح والبخور والمسك والتمر بين هراير وقبرص وعدن، حتى اذا جمع بعض المال، اصيب بمرض في ساقه ادى الى قطعها، ثم انتشر المرض في عظامه، فمات به وهو في السابعة والثلاثين.

وعشرات هي المؤلفات التي وضعت في مختلف اللغات عن هذا الشاعر الاعجوبة، ولكن ليس ثمة من وفق الى سبر غور هذا الانقلاب الذي اصابه رامبو، من شاعر تفيض جوانحه صوراً والواناً ومعاني، الى تاجر لا يعنيه الا كسب المال ويؤذيه ايذاء شديد ان يذكره احد بماضيه الابداني ! « لقد ذهب ذلك الماضي، ولست افكر به بعد ».

وسوف نظل عاجزين عن استكناه هذا الطلسم، حتى تكشفه لنا وثائق مدفونة من حياة رامبو ومن شعره

اكتشاف ايقاعات جديدة ، واخلاط من الالوان والصور ، بل كان يؤمن ان للكلمة كيمياء خاصة ، وفي ذلك يقول : لقد اخترعت للاحرف الصوتية Voyelles ألوانا ، فالأ سوداء والـ E بيضاء والـ I حمراء والـ O خضراء . ولقد نظمت شكل كل حرف وحركته ، واخذت اختراع الايقاعات الغريزية لغة شعرية تتقبلها جميع الحواس عاجلا ام آجلا ... لقد كتبت الصمت والليل ، وسجلت ما لا يعبر عنه ، وركزت دوارات

اجل ، لقد عمد رامبو الى السحر ليخلق اللغة الشعرية الجديدة ، ولكنه ما لبث ان اخذ هو نفسه به ، فاذا هو الساحر المسحور . ولقد ادرك ، هو العراف البصير هذه الحقيقة : « لقد تعودت الهلوسة Hallucination ، فكنت ارى جامعا بدلا من مصنع ومدرسة للطبول صنعتها الملائكة ، ومر كبات على دروب السماء ، وصالة في قعر بحيرة ، وجنأ و عفاريت ... ثم كنت اشرح سفسطاتي السحرية بهلسنة الكلمات . »

وهذا المزيج من وهم المثال و كثافة الواقع هو الذي اصدر تلك الروائع النادرة في شعر القرن الماضي وشعر هذا القرن العشرين : « زهور » ، « قديم » ، « دمعة » ، « الغربان » ، « الزوج الجهنمي » ، ولا سيما « فجر » : هذه القصيدة الثرية التي يتطير منها الشرر والتي تعكس اشاعات مرآوية غنية : « عانقت فجر الصيف . ولم يكن ثمة في جبين القصور حركة ولا نبسة . كان الماء ميتا . ولم تكن معسكرات الظلال تغادر درب الغابة . لقد مشيت فأيقظت الانفاس الناضرة الحرنى ، وتلفتت الاحجار تنظر ، ونهضت الاجنحة من غير اصطفاق ... وضحكت للشلال يتناثر شعره عبر شجر الصنوبر ، وعلى رؤوس الاشجار الفضية ، رأيت الآلهة . » هذا الذي كتب هذه الحروف ، واستل من جناح الخيال المبدع تلك الريشة الصناع ، واراتق من عيب الاحساس هذه النقطة المسكرة ، ارتور رامبو هذا ، لماذا طعن آلهة الشعر وقد عبدها خمسة اعوام ، وجادت هي عليه بأغنى عطاياها ؟ لماذا انصرف عنها الى دنيانا العادية المبتذلة ؟

ليبق رامبو طلسم مغلقا ، وليظل شعره بين ايدينا مستودع اسرار ، يثير قلقنا وحيرتنا ، كما ظل المجهول والمطلق يثيران قلقه وحيرته ، فان هذا هو سر العبقرية . (*)

سهيل ادريس

(*) ألفت هذه الكلمة في حفلة الذكرى المثوية لمولد رامبو التي اقامتها مدرسة الآداب العليا في بيروت في الشهر الهادي .

اخته ايزابيل انه كان يردد وهو على سرير الموت عبارة « الله كريم » . ولماذا نبحت بعيداً عن الشواهد ؟ ألم ينته به الامر وهو في الشرق ، بعيداً عن الادب والشعر والسياسة الى ان يكتب الى ذويه قائلاً : « انكم تخذونني عن الانباء السياسية . ليتكم تعرفون مقدار عدم اكرائي لهذا كله ! انني لم اقرأ صحيفة منذ عامين ، وان جميع هذه الامور اصبحت لدي غير مفهومة . انني الآن اعرف كالمسلمين ان ما هو مكتوب ينبغي ان يقع ، وهذا كل شيء ! »

وهكذا يظل رامبو في حنين موصول الى المجهول ، وهو يؤثر ان يؤمن بالقدر على ان يهتك سر هذا المجهول الذي هو منبع القلق كله .

أما شعره ونثره ، فيها السحر كله ، السحر في أعرق معانيه واضيقها . لقد ادرك شاعر « الاشراقات » سر الشعر الحقيقي ، ونفذ الى روح صميميته ، وعاش في اعماق قلبه . كان « سفينة سكرى » نخرت جميع امواج المعرفة وحاولت ان تثق جميع ثنابا النفس . وقد تنبأ منذ كان في الخامسة عشرة ان عليه مهمة عظيمة ، اذا شاء ان يخوض هذا العباب : « ما أشق من عمل ! ان كل شيء للهدم ، وان علي ان احو كل شيء من رأسي » . اما ما ينبغي ان يعمل ، فهو « بلوغ المجهول بايقاع الاختلال في جميع الحواس » كما كتب لصديقه « ايزامبار » Izambard تعليقا على قصيدته « القلب المعذب » . ان الشاعر في رأيه هو « سارق نار » يضيء بها الظلمات التي تغشى علائق الاشياء فيما بينها . ولقد اراد رامبو ان يكون « عرافاً » Voyant وان يمارس السحر في شعره ، ولهذا لم يتردد في ان يقول : « لقد اصبحت اوبرا اسطورية » . والوبرا الاسطورية هي ، كما يقول الشاعر المعاصر بيار جان جوف P. J. Jouve : « عمل الفن بمزجاً في الينبوع اللاواعي وملاعياً هاويته » .

كان رامبو مأخوذاً بالاحاسيس الجديدة والصور التي لم يسبق اليها ، فكان يبحث عنها ابدأ ، ويتوسل اليها حتى بالسبكر والاستنشاء بالحشيش والتلذذ بدخان التبغ . وكان يجهد في

هذه المجرة

طبعت في مطابع « الآداب » التي تعلن استعدادها لطبع الكتب والمجلات والنشرات التجارية طبعاً أنيقاً وسريعاً ، على آلاتها الاوتوماتيكية .

بيروت - الخندق العميق - شارع الشدياق

ص . ب ١٠٨٥ تلفون ٢٦٩٩٦